نظامنا الاجتماعي

(٣) اعمالنا والبواعث إليها

نظنكم أيها القراء الاماثل تذكرون اننا في الشهر الفائت قد أفضنا في مباحث الفرد من الوجهة الاجتماعية — وأسهبنا في تأثير عمله في الجماعة الانسانية — وشرحنا ارتباط عمل الفرد بالجماعة — وارتباط أعمال الجماعة بالفرد — وضربنا لكم الامثال — وأدلينا بطائفة من البرهانات . فدحضنا بها طائفة من الترهات . وما ينبغي لنا بعد كل اولئك ألاّ نتصدى لاعمال الانسان وألاّ نكشف القناع عن أسبابها والبواعث اليها . والاشياء تذكر بمشابهاتها . والامور مرهونة بأوقاتها . والنتائج تقترن بمقدماتها . ولا أرى شبهاً للموضوعات المتشابهة المتجاذبة المتآلفة الا انها كالنفوس والارواح فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . ولا ريب ان كل ابن لاحق بأبيه وكل فرع تابع لاصله وشبيه الشيء منجذب اليه . وها نحن أولاء نرجي الى ساحتكم أيها القراء مقالنا هذا فعسى ان تعيروهُ عناية إذا صادف هوى في انفسكم فتقول في العمل

غير خافٍ عليكم انّ ما تشاهدونهُ في هذا العالم من قصور شاهقة وآثار شامخة وفرش وثيرة وأمتعة كثيرة . وما تتناولون من ضروب الطعام وصنوف الشراب وما تلبسون من انواع الثياب إنما هو من عمل الانسان . وما تتذوقون به أرواحكم وتقوّمون به نفوسكم وتؤيدون به سلمكم وتشيدون به مجدكم وتطيلون به آجال دولكم من المؤلفات التهذيبية والمصنفات العلمية إنما هو ثمر عقل الانسان . والله خلقكم وما تعملون . أما البواعث التي تبعث الانسان الى العمل فثلاثة الغريزة والمنفعة والواجب . اما الغريزة أو الميل أو السجية فهي صفة راسخة في الحيوان (والانسان حيوان إلاّ انهُ ناطق) تصدر أعمالاً لم تنشأ عن تعلّم او تجارب ولم يقصد بها الحصول على غاية وإن حصلت هذه الغاية فعلاً . ويمكن ان تلبس الغريزة أثواباً متعدّدة وتتشكل أشكالاً متعدّدة من الدرك الاسفل في الحيوان الى اسمى المشاعر في الانسان بمقدار تباين طبائع الافراد وبيئاتهم ودرجات تربيتهم وتعليمهم . وحينئذٍ تتحول الغريزة الى رغبة وارادة قائدها العقل ورائدها الحكمة — ولذلك كانت أفعال المجانين صادرة عن الاميال

والغرائز كالاطفال ويلحق بهم الجهلاء الذين انغمسوا في اللذات وسبحوا في بحار الغوايات حتى أرداهم الترف وأهلكهم النعيم فإن جل أعمالهم صادر عن ميل الى اللذة ولا عقل يعصمهم من الزلل أو يكبح من جماحهم . وكذلك كل نفس كما قال شوقي

تطغى إذا مكّنت من لذة وهوى طغى الجياد إذا عضّت على الشكم

وكثير من الغرائز او السجايا لا يلبث امداً بعيداً فان لها اوقاتاً تقوى فيها شرّتها فإن لم يرضها المربون المخلصون والهداة الراشدون قبل ان تبلغ أشدّها طغت واضرّت كثيراً لا بأصحابها فحسب بل بالامة كلها وكان تقويمها علينا عسيراً — صدق الشاعر اذ قال

ان الغصون اذا قوّمتها اعتدلت ولا يلين ولو قوّمتهُ الخشب

ونتيجة الغريزة مجهولة فالسجية الواحدة قد تلد عادات مختلفة فاذا ألفيتم في الاحداث حب الملك والحيازة فلا تجزموا بان هذه السجية ستتحوّل الى شح او قصد في الانفاق بل تتشكل حسب الظروف والاحوال فصلينا جميعاً ان نراقب سجايا الاطفال وان نعطيها من الغذاء ما يساعدها على الضرب في سبيل الفضيلة والتكسب عن طريق الرذيلة

اما غريزة الحيوان الاعجم فلا يأتيها تغيير او تبديل — واهم غرائز الانسان وسجاياهُ الباقية حرصهُ على البقاء في الدنيا بسعيهِ في مناكبها ليحصل على قوتهِ واحتفاظهِ بنسلهِ ولولا حاجتهُ الى الغذاء او حرصهُ على البقاء لما كان هذا العمران الضخم ولا ذلك الوجود الفخم

واما المنفعة فهي السعي وراء السعادة الشخصية وتكون صادرة عن ارادة واختيار وروية فهي اذن ضدّ السجية

وقلب المنفعة الاثرة وجناحاها الارادة والعقل . والناس جميعاً طلاّب منافع وارباب مطامع وهم قسمان قسم منهم يطلب المنفعة وهو اهل لها فيفيد كما يستفيد وخليق بالجماعة ان تساعدهُ وتؤتيهُ فوق ما طلب. ولولا الكلف بالعمدة والشغف بالجمال والاستكثار من الاموال لما كانت تلك المبتدعات ولا وجدت تلك المؤلفات وما كان لاربابها ان يحتكروها فلا يسوغ لسواهم تقليد المخترعات ولا يجوز لغيرهم طبع المصنفات ولما كانت هناك ضرورة لتسجيل كل مخترع اختراعهُ بل يبالغ في اخفاء طريقة عمله . واذا كان لكروب الجرماني بعض العذر في كتمان طريقة صنع مدافعهِ

لئلا تصنع مثلها الخلفاء على كثرة جيوشها فيتسنى لهم قهر المائيا امته العزيزة فما عذر بعض العلماء الذين يخفون طرق اختراعاتهم ولو كانت محيّة لازمة لنوع الانسان كشمعة باستور او راشح باستور

وقسم آخر يطلب المنفعة ايضاً وهو غير اهل لها فيستفيد ولا يفيد وهو كلّ على أمته بلاء على دولته لأنهُ معول هدم بنائها وخليق بالجماعة وخاصّة اولى الحلّ والعقد وذوي الجاه الا يساعدوا هذا القسم من الناس ويحققوا لهُ رجاء فكيف ان خلقوا لهُ مناصب عالية برواتب ضخمة واطلقوا يدهُ في المصالح تخبط خبط عشواء ! !

اما الواجب فالعمل ضدّ الغريزة والمنفعة معاً فيعمل الانسان الخير لانهُ خير ويعبد الله لذاته لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته : وهذا الباعث احسن البواعث واشرفها وهو مصحوب بشعور خاصّ يدعى الالزام الذي يلزمكَ ضميرك او دينك وكلّ شيء هين ورخيص في سبيل أداء الواجب وما عهدنا ناساً على هذا المبدأ الاّ الأنبياء والمرسلين وقد ماتوا والخلفاء الراشدين وقد بادوا . صدق شوقي فيما قال

خلائف الله جلّوا عن موازنة فلا تقيسنّ أملاك الورى بهم

ولا توجد ضرورة للتفريق بين البواعث الثلاثة والاخذ بواحد منها دون الباقيين بل ربما اقتضى الفعل الواحد الميل النفسيّ والفائدة الشخصية والواجب العام كالعالم في بحثهِ عن الحقيقة فهو يجمع بين البواعث الثلاثة المذكورة وأحياناً يتحد باعثان وينفرد الباقي والامثلة كثيرة . وتدفعنا تلك البواعث الثلاثة الى غايات مختلفة

(فالميل) يغوينا ويحدونا الى اللذات والشهوات (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث)

(والمنفعة) تسوقنا الى السعادة الشخصية والهناءة الدنيوية.(والواجب) يفرض علينا كالنا الذاتي والعمل على المساواة والعدالة وقطع دابر الفساد وحقن الدماء وجعل الناس جميعاً امة واحدة لا انساب بينها ولا تنابز بالالقاب لها ملك واحد هو اللطيف الخبير

وكيف السبيل الى ذلك كله — الا انهُ مستحيل رغم الامانى العامة وانها لمحض احلام وطائفة اوهام وما نداء عصبة الامم الا صيحة في واد ونفخة في رماد

والقوم يفتك اقواهم بأضعفهم كالليث بالبهم او كالحوت بالبلم

عبد الرحيم محمود

المدرس بمدرسة فؤاد الاول الثانوية والمعلمين الثانوية